الحضارة الليبية في الجنوب الليبي [إقليم فزانيا]

الدكتور / الطيب محمد احمادي

أستاذ التاريخ القديم

بكلية الآداب – قسم الآثار

جامعة قاريونس

• الموقع الجغرافي لمنطقة فزانيا Phazania = فزان = Fezzan :

يقع إقليم فزانيا ***Phazania*** جنوب الخط الذي حدده هيرودوت والذي أشار إليه على أنه خط رملي يمتد من طيبة في مصر إلى أعمدة هرقل [1] ويمكننا ربط ذلك بالواحات الشمالية لهذا الإقليم وهما أوجله ***Augila*** وغدامس ***Gydumus*** ، أما من الناحية الجنوبية فيمتد من العوينات وواحة الكفرة شرقاً إلى واحة غات غرباً ، ويضم هذا الإقليم مجموعة من الواحات والمدن التي كان لها دورها في فترة التاريخ القديم وأهمها مدينة "جرمه" التي تقع في منطقة وادي الآجال .

ويتكون الجزء الجنوبي من ليبيا من مجموعة من الواحات وأراضي واسعة من الصحراء إضافة إلى الجبال التي تطرق لها المؤرخون القدماء وعلى رأسها جبال الهروج السوداء ((وبعد هؤلاء تمتد جبال من الشرق إلى الغرب ويدعوها قومنا الجبل الأسود)) [2].

وتشير المصادر إلى مجموعة من الواحات * التي تنتشر من الكفرة إلى غات وتتوفر في تلك الواحات المياه والحياة الزراعية وجنوب تلك الواحات توجد جبال تيبستي والتي تعتبر من ضمن المناطق المشهورة في العالم بسبب الرسوم والنقوش الصخرية الموجودة بها والتي تمثل مصدراً من مصادر تاريخ فترة ما قبل التاريخ في ليبيا بوجه خاص وفي العالم القديم بوجه عام .

أما فيما يخص الأحوال المناخية فان مناخ المنطقة صحراوي يمتاز بشدة حرارته الصيفية وبجفافه وبرودته خلال فترة الشتاء ، ويبدو أن الأحوال المناخية في الفترة القديمة كانت أحسن حالاً من وضعها في الوقت الحاضر وخاصة نسبة الأمطار التي كانت تهطل على المنطقة والتي يعتقد أنها كانت بمعدل أكبر في تلك الفترة ، أما في فترة ما قبل التاريخ فقد كانت الظروف المناخية مختلفة عن وضعها الحالي والزائر لتلك الأماكن يلاحظ الوديان والكهوف المجاورة لها والتي تم اكتشاف الرسوم الصخرية

فيها ويلاحظ آثار مياه الوديان والأنهار باقية على الحجر الصلب إلى يومنا هذا ، وهذا دليـــل علـــى تواجد إمكانيات الحياة في تلك المنطقة في فترة ما قبل التاريخ .

وتتكون الأقاليم الجنوبية كما ذكرنا من مجموعة الواحات والمدن التي أشارت لها المصادر التاريخية ونلاحظ أن بعض أسماء تلك المدن القديمة ما زالت باقية إلى يومنا الحاضر ويمكننا إعطاء أمثلة علـــى تلك المدن مثل ، جرمه ***Garama*** عاصمة دولـــة الجرمنـــت وأوبـــاري ***Oebris*** ودبـــريس ***Debris*** وتلغاي ***Thelgae*** وكل هذه المناطق في وادي الآجال ، وتيبستي ***Tibesti*** وغـــات ***Rabsa*** وتقع هذه المناطق جنوباً وبراكم = براك ***Baracum*** [3] ، وواحة سبها ***Sabae*** وقد كانت كل هذه المناطق عبارة عن محطات انتقال بين الجنوب والشمال من جهة وبين الجنوب ووسط أفريقيا من جهة أخرى وتمثل محطات للطرق التجارية التي كانت تسلكها القوافل التجارية وخاصة في فترة ازدهار حضارة الجرامنت .

أصل الجرامنت وجذورهم التاريخية

يُعد الجرامنت من ضمن القبائل الليبية التي استوطنت وأسست حضـــارة في الجنـــوب الليـــبي ، وجاءت أولى الإشـــارات التي وردت لدى المؤرخـــين القدامى من هيرودوت ((وبعد مسافة عشرة أيام مسير أخرى من أوغيلة [أوجلة] يوجد تل ملحي آخر وماء وأشجار نخيل كثيرة ومثمرة ، كما هو في الأماكن الأخرى ، وبشر يسكنون هذا المكان يكون اسمهم الغرامنتيس [الجرامنتس] وهم قوم كثيرو العدد وهؤلاء يزرعون التربة بعد أن يبسطوها فوق الملح)) [4] .

أما حديث بليني الأكبر عن الجرامنت فقد جاء عند حديثه عن حملة بالبوس الرومانية على مناطق الجنوب الليبي ((ثم جرمه عاصمة القارامنتس الشهيرة وقد أخضعت جميع مواطنهم بيدي روما حين فتحها كورنيليوس بالبوس)) [5].

وتُعد اشارتي هيرودوت وبليني الأكبر أول اشارتين عن قبائل الجرامنت في المصادر الأدبية الكلاسيكية وكلا الأشارتين تدل على قبائل مستقرة ولها مدن وإلى حد ما لها حضارة ، خاصة في إشارة بليني الأكبر لتلك القبائل [6].

أما فيما يخص أصل الجرامنت وجذورهم العرقية الأولى فهناك مجموعة من الآراء تشير إلى أصول مختلفة لقبائل الجرامنت ولكن يجب التنويه إلى أن أغلبية الآراء لا تستند إلى أدلة أدبية أو مادية تؤكد تلك الآراء .

و يشير البعض إلى ان أصل قبائل الجرامنت يعود إلى فترة أواخر القرن الثالث عشر وبداية القرن الثاني عشر قبل الميلاد ويُربط بهجمات الشعوب البحرية التي هاجمت المناطق الجنوبية من منطقة شرقي البحر المتوسط وجنوبه ابتداءً من سوريا وفلسطين ومروراً بالإقليم الشرقي من ليبيا ونهاية بمصر وقد صدت مصر تلك الهجمات في عهد مرنبتاح "**1222–1211** ق.م" [7] . ويضيف أن جزء من تلك القبائل استقر في ليبيا واتجهت فيما بعد جنوباً ويعود الجرامنت في أصولهم إلى تلك القبائل من الشعوب البحرية .

وهناك رأي آخر يعود بالجرامنت إلى قوم جالوت وهو الملك الفلسطيني في عهد سيدنا داود عليه السلام ويرى أصحاب هذا الرأي أن داود عليه السلام عندما إنتصر على الفلسطنيين وقتل ملكهم تشردت القبائل التابعة للملك جالوت وهاجرت ودخلت مصر ، لكن المصريين لم يمكنوهم من الاستقرار في مصر واتجهوا غرباً إلى ليبيا و لم تسمح لهم القبائل الليبية من الاستقرار في الشمال الليبي

فاتجهوا جنوباً واستقروا في المناطق الجنوبية من ليبيا وتعود أحداث هذه الرواية إلى بداية الألف الأول قبل الميلاد .

ويشير رأي ثالث إلى أن الجرامنت من أصول مصرية وبالتحديد من واحة سيوه وقــد هــاجروا منها بعد الاستيلاء عليها من قِبل الإمبراطور الفارسي قمبيز خلال أواخر القرن السادس قبل الميلاد [8].

ونحن نعتقد أن تلك الآراء لا تستند على أي دليل مادي أو أدبي ، والأرجح من وجهة نظرنــا أن الجرامنت مثلهم مثل القبائل الليبية في أواخر عصر الأسرات وخلال فتــرة الاســتيطان الإغريقــي والفينيقي للإقليم الشرقي والغربي من ليبيا ويمكننا أن نؤكد ذلك نتيجة للعلاقات الممتازة التي كانت بين القبائل الليبية في إقليم المدن الخمس وإقليم المدن الثلاث والمساعدات التي كان يقدمها الجرامنــت لتلك القبائل في حروبها ضد المستوطنين الإغريق والبطالمة والرومان وفي المقابل العلاقة الحســنة مــع الفينيقيين بالرغم من تواجدهم في إقليم طرابلس وهذا ان دل على شئ فإنما يدل على الجذور العرقية الواحدة لتلك القبائل والارتباط الثقافي والاجتماعي الذي كان بينهما وربما ان كل تلك القبائل سواءً في الإقليم الشرقي أو الغربي أو الجنوبي من ليبيا تعود في أساسها إلى أصول شرقية ربما مــن الجزيــرة العربية أو منطقة المشرق القديم .

فترة ازدهار الحضارة الجرامنتية من خلال المصادر التاريخية

شهد الإقليم الجنوبي من ليبيا حضارة عريقة تمثل الحضارة الليبية الأرقى في فترة التاريخ القــديم ، وتمثلت مظاهر تلك الحضارة في الأدلة الثقافية والاقتصادية والسياسية التي خلفتها حضارة الجرمنت ، وشهدت فترة ازدهار خلال القرون الأربعة الأولى بعد الميلاد [9] ، وقبل الدخول في التفاصيل يجــدر بنا أن نعطي فكرة عن فترة ازدهار تلك الحضارة والامتداد الذي شهدته وتأثير الحضارات القديمة فيها

والتي كانت منتشرة في الشمال الأفريقي أو مصر القديمة وفي بلاد الإغريق وروما ، وسنعرض أولاً أقوال المؤرخين الذين تطرقوا لتلك الحضارة ورأيهم فيها ومنهم هيرودوت الذي يعتبر أول المؤرخين الذين تطرقوا إلى قبائل الجرمنت وأوضاعهم الاقتصادية وعلاقاتهم الاجتماعية وأماكن تواجدهم

- **النص الأول** :

((**وبعد** مسافة عشرة أيام مسير أخرى من أوغيلة [أوجلة] يوجد تل ملحي وماء وأشجار نخيل كثيرة ومثمرة كما هو الحال في الأماكن الأخرى ، وبشر يسكنون هذا المكان يكون أسمهم الغرامنتيس "الجرامنتس" وهم قوم كثيرو العدد ، وهؤلاء يزرعون التربة بعد أن يبسطوها فوق الملح ، ولدى هؤلاء توجد الثيران التي ترعى وهي متراجعة إلى الخلف وترعى متراجعة إلى الخلف للسبب التالي : لأن لها قروناً منحنية إلى الأمام لأن قرونها عندئذ ستنغرز في الأرض . ولا تختلف عن الثيران الأخرى في أي شيء آخر غير ذلك ، بالإضافة إلى الجلد من حيث السمك والملمس ، ويطارد هؤلاء القرامنتيس سكان الكهوف الاثيوبيين بالعربات التي تجرها أربعة خيول)) [10].

- **تحليل مضمون النص الأول** :

من خلال نص هيرودوت يمكننا أن نكّون فكرة عن حياة الجرمنت بصفة عامة **ويمكن تلخيصها في النقاط التالية** :

1- **السكان** :

من خلال وصف هيرودوت يمكننا أن ندرك عدد سكان الجرمنت وانتشارهم ، فعندما يصف هيرودوت الجرامنت بأنهم كثيرو العدد فمعنى ذلك أنهم ينتشرون في الأجزاء الجنوبية بشكل كبير

سواء كانت تلك المناطق المدن أو الواحات و لم يطلق هيرودوت هذا الوصف على أي قبيلـــة مـــن القبائل الليبية الأخرى التي كانت تلعب دوراً كبيراً في حركة المقاومة ضد المستوطنين أو الأمـــاكن الواسعة التي كانت منتشرة فيها مثل قبائل المارمايداي والنسامونيس والمكاي ، ويدل هذا الوصـــف على انتشار قبائل الجرمنت في مناطق واسعة من الجنوب الليبي والوسط الـــذي يمتـــد بـــين أوجلـــه وغدامس .

2- الزراعة والرعي :

وصف هيرودودت المناطق الجرامنتية بأنه كثيرة الأشجار وخاصة أشجار النخيل المثمرة إضافة إلى توفر الميـــاه الصالحة للشرب والزراعة وهذا يعطي بعض الأقاليم التي كان يعيش بها الجرامنت بعداً اقتصادياً زراعياً تتوفر فيـــه سبل قيام الحضارة التي تعتبر المياه إحدى مقوماتها ويؤكد هذا الرأي عندما يتحدث هيرودوت عن الحيوانات الـــتي تعيش في هذا الإقليم وعلى رأسها الثيران والتي يبدو أنها تعيش في أراضي زراعية ورعوية خصبة مما جعلها بتلـــك الكيفية التي أشار إليها هيرودوت حتى ولو أن ذلك الكلام به مبالغة إلا أنه يدل على الأحوال الزراعية والرعوية التي كانت تتمتع بها أراضي الجرامنت .

3- التقدم الحضاري واستعمال الآلة :

يتبين من خلال وصف هيرودودت للجرامنت بأنهم كانوا يطاردون الأثيوبيين بالعربات التي تجرها خيول ويدل ذلك على أن الجرامنت في ذلك الوقت قد بلغوا خطوة متقدمة من التحضر أو التمدن ، وقد عرفوا حياة الاستقرار وبناء المدن منذ فترة ليست بالقليلة وتعتبر هذه الصورة دليلاً على مرحلـــة التمدن والاستقرار الذي في العادة تصنعه الدولة وليس القبيلة وكانوا يتمتعون بمهارة عالية ويـــبرهن على ذلك استعمال تلك العربات التي كانت تعتبر من المظاهر الحضارية للدولـــة وقـــد ظهـــرت في النقوش والرسومات في عدة حضارات سابقة للجرمنت مثل المصريين وبلاد ما بين النـــهرين ، أمـــا

وصف هيرودوت في الفقرة **174** فنحن نرى أنه خطأ في الاسم وليس المقصود الجرامنت بل قبيلة القمفزانتس ***Gamphassantes*** .

- **النص الثاني** :

جاء هذا النص على لسان سترابون حيث يقول ((أمّا الأرض وراء أرض الغايتوليين فتكون أرض الجارامنتيين "الجرمنتيين–الجرمنت" وهي موازية للسابقة ومنها يجلب الكارخيدونيون "القرطاجيون" الأحجار ، ويقال إن الجرمنتيين يبعدون عن الأثيوبيين المجاورين للمحيط برحلة [مسافة] تسعة أو عشرة أيام ويبعدون عن آمون خمسة عشر يوماً ، يوجد بين أرض الغايتوليين وشاطئنا ، سهول كثيرة وجبال عديدة وبحيرات كبيرة وأنهار بعضها يجري تحت الأرض ويصبح غير منظور ويكون السكان متقشفون جداً في حياتهم وملابسهم ، ولهم زوجات متعددة وأطفال كثيرين وفيما عدا ذلك فهم يشبهون البدو الرعاة العرب ، وبالنسبة للخيول والثيران لها رقاب أطول مما تكون في المناطق الأخرى وتكون تربية الخيول محل اهتمام كبير ومميز من قِبل الملوك ، حتى أن عدد المُهر يزيد كثيراً ويصل مائة ألف سنوياً ، أما الخراف فهي تغذي بالحليب واللحم خصوصاً قرب اثيوبيا ، هذه هي الأحوال في المناطق الداخلية)) [11].

- **تحليل مضمون نص سترابون** :

من خلال تحليل المعلومات التي جاءت على لسان سترابون يمكننا ان نحصر تلك المعلومات في النقاط التالية :

1- الموقع :

نلاحظ إلى حد ما تحديد لمواقع الجرامنت خاصة من الجهة الشمالية والجنوبية الشرقية ففي الشمال كما يشير سترابون أراضيهم موازية للأراضي التي يوجد بها الليبوفينيكس أي الليبيون الفينيقيون وهم على السواحل ولكن ليس المدن الساحلية حيث يقول سترابون عنهم ((وراء الشاطئ الممتد من كارخيدون "قرطاج" إلى كيفالي وإلى أرض الماسيسيلين تقع أرض الليبوفينيكس الممتدة حتى أرض الغايتوليين)) [12] . والمنطقة الأولى التي يتحدث عنها سترابون هي منطقة إقليم طرابلس ثم قرطاجة إلى نوميديا وهؤلاء كلهم على الساحل وتقع أرض الغايتوليين جنوب هؤلاء وبنفس الامتداد من نوميديا إلى جنوب منطقة إقليم طرابلس . وجنوب الغايتوليون تقع أرض الجرامنت

موازية لهم وهذا يعطي امتداد المنطقة من غدامس غرباً إلى أوجله شرقاً و السودان واثيوبيا جنوباً كل هذه المناطق تعتبر امتداد للنفوذ الجرامنتي .

2- **التجارة** :

نلاحظ في هذا النص إشارة واضحة إلى العلاقات التجارية القرطاجية الجرامنتية حيث أشار سترابون إلى ذهاب القرطاجيين لإحضار الأحجار الكريمة وقد يكون العقيق الأحمر وبعض المواد غير المتوفرة في المناطق الشمالية مثـــل سن الفيل والعاج وريش النعام إلى غير ذلك من الأمور التي اشتهرت بها أواسط أفريقيا .

3- **الزراعة** :

يتفق نص هيرودوت مع سترابون على أن توفر الثروة الحيوانية كان بكثرة ملفتة للنظر وذلك من خلال الأرقام التي أعطاها لعدد المُهر [صغار الخيل] والتي تدل على توفر الزراعة بشكل واسع جداً لأن تربية الخيل تعتمد علـــى الأعلاف أكثر من الرعي إضافة إلى الثيران والخراف التي أشار إليها سترابون .

4- **الوضع السياسي والسكاني** :

في هذا النص نجد إشارة جديدة من سترابون حول نظام حكم هذه القبائل التي أشار فيها إلى "الملوك" وقد يدل ذلك على عدد كبير من الملوك الذين يحكمون المدن لاسيما وأن تلك المدن كانت متباعدة عن بعضها الـــبعض ، الأمر الذي يجعلها مدن كل منها قائمة بذاتها وربما تخضع في النهاية إلى سلطة مركزية في مدينة جرمـــة عاصـــمة الجرامنت كما نجد إشارة إلى عدد الزوجات التي يترتب عنها زيادة في عدد الأطفال وهذا ما ورد عند هـــيرودوت عندما وصفهم بكثيري العدد . أما فيما يخص حياتهم اليومية فيروي سترابون أنهم يعيشون حياة التقشف وحيـــاة البداوة ، ومن خلال نصي هيرودوت وسترابون يلاحظ الأهمية التي تمثلها الخيل في حياة الجرامنت إذ كانت تؤدي وظيفة عملية في حياتهم اليومية ويبدو أنها تمثل أيضاً جانباً جمالياً أونوع من الرقي الاجتماعي والترفيهي .

4- **النص الثالث** :

ويعود هذا النص إلى المؤرخ بليني الأكبر الذي عاصر فترة حكم الإمبراطور الروماني فسباسيان "**69 – 79** م" و أرّخ لحملة فسباسيان وحملة كورنيليوس باليوس في العـــام 19 ق.م وقد جاءت إشارات بليني الأكبر للجرامنت

كالتالي ((ومن هنا جبل يمتد لمسافة طويلة من الشرق إلى الغرب يسمى من قِبل "أهلنا" قومنا ، الأسـود بسـبب طبيعته وكأن شكله قد تأثر بفعل حرارة الشمس "لهيب حرارة الشمس" وبعد صحراء ، ثم ***Thelgae*** مدينـة الجرمنتيين تلغاي وكذلك ***Debris*** = دبريس ، التي بقربها توجد عين نبع ، من منتصف النهار إلى منتصف الليل مياهها تغلي "ساخنة" طيلة الوقت ثم من منتصف الليل إلى منتصف النهار تكون باردة بنفس عليها القوات الرومانية ، وفتحها وانتصر عليها كلورنيليوس باليوس)) [13].

((**وهناك** كذلك هذه الحادثة المشهورة وهي أن كتابنا سجلوا أسماء البلدان المذكورة آنفاً كأنما أخـذها هـو وذكروا أنه حمل في موكب نصره إلى جانب غدامس وجرمه أسماء وصور جميع الأجناس والمدن الأخرى التي سارت على هذا الترتيب " .... ،.... ، .... ، وجبل "غيري" الذي كانت صورته في النقش على أنـه كـان موضـعاً تستخرج منه الحجارة الكريمة ، وقد كان مستحيلاً قبلئذ . أن تشق طريق إلى بلاد الجرامنت إذ أن قاطعي طـرق ذلك الجنس يملأون الآبار بالرمل ، وهذه الآبار لا تحتاج إلى حفر عميق لو كنت معاناً بمعرفة مواقعها . وفي الحرب الأخيرة التي شنت على أهل أويا في بداية قنصلية "فسباسيان" اكتشفت طريق قصيرة لمسافة أربعة أيام فقط وهـي المعروفة بطريق [رأس الصخرة])) [14]

تحليل نصوص بليني الأكبر :

من خلال دراسة النصين السابقين نستنتج ما يلي :

1- المدن :

أشار بليني خلال حديثه عن المناطق التي احتلها الرومان إلى مجموعة من المدن والقبائل والأنهار التابعة للجرامنت وقد وصلت إلى حوالي ثلاثين مدينة وقبيلة ، وكان أشهر مدينتين هما جرمه عاصمة الجرامنت والتي قال عنها بليني أنها مشهورة وبالطبع فهي مشهورة لدى الرومان وسكان أفريقيا الشمالية ، ثم مدينة غدامس التي تعتـبر المركـز التجاري الشمالي لقبائل الجرامنت ومن خلال هذا الحديث فإننا نجد نفس المعلومات التي تحدثنا عنها خلال إشارات سترابون وهيرودوت حيث يمتد إقليم الجرامنت بخط موازي للساحل ابتداءً من غدامس إلى أوجله تقريبـاً مـروراً بالحمادة الحمراء والجبال السوداء ، أما فيما يخص هذا العدد الكبير من المدن فيدل ذلك عل اتساع الأرض الـتي

انتشرت فيها تلك الحضارة ومواقعها الثابتة التي يستقر بها الإنسان وتعتبر هذه المعلومات التي جاءت على لسان بليني معلومات تم توثيقها خلال الحملة الرومانية على الجنوب الليبي في العام **19** ق.م وكما أعاد بليني توثيقها خلال الحملة الثانية في عهد الإمبراطور فسباسيان الذي كان بليني معاصراً له ولهذا تعتبر تلك المعلومات مهمة للغاية .

2- الطرق إلى الجرامنت :

خلال حديثه عن الحملة الرومانية الثانية تحدث بليني عن اكتشاف طريق جديدة إلى جرمه عاصمة الجرامنتيين ، وخلال حديثه عن المنطقة الفاصلة بين الشمال والجنوب تحدث عن مجموعة من المدن التي تربط بين الشمال والجنوب والتي كانت تتخذها القوافل محطات للتزود بالمؤن والماء خلال تلك الرحلة الصعبة ، ومن خلال الدراسات الحديثة يمكننا أن نتعرف عن الطريق القديم الذي اتبعه بالبوس والجديد الذي اتجهت عن طريقه الحملة في عهد فسباسيان .

يبدأ الطريق الأول : صبراته – غدامس – الحمادة الحمراء – وادي الشاطئ – جرمه [العودة : جرمه – سبها – دبريس – الجبال السوداء – ماكسلا = مسلاته – لبدة] [15]

انطلق فسباسيان في الحملة الثانية من أويا إلى الرأس الصخري "ربما كانت جرزة أو الشويرف" [16] . ويقول بليني ان الرومان قد اكتشفوا في هذه الفترة طريق جديد إلى جرمه يمكن قطعه خلال أربعة أيام فقط ، ويرى البعض أن هذا الطريق ينطلق من مدينة أويا – مزدة – الحمادة الحمراء – جرمه [17] .

ومن خلال حديث بليني الأكبر يلاحظ الخبرة الواسعة للجرامنت في حرب الصحراء وسرعة الحركة ، ومعرفة أماكن تواجد المياه التي يقومون بردمها بالرمال عندما يهاجمهم الأعداء وقد ساعد الجرامنت في هذه الحملة استعمالهم للجمال التي تتحمل الظروف الصحراوية ولا تحتاج للمياه مثل الخيل التي كان يستعملها الجرامنتيون في مناطقهم .

3- التجارة :

يمكننا التعرف على الأهمية التجارية التي تمثلها الحضارة الجرامنتية من خلال إشارتين هما : "جرمه عاصمة القارامنتس المشهورة" – "وجبل غيري" الذي قدمت صورته في نقش على أنه كان موضعاً تستخرج منه الحجارة الكريمة" .

فشهرة مدينة جرمه في نص بليني تشير إلى أنها معروفة عند الرومان والمواد التي تأتي منها عن طريق القوافل التي تنتقل من وسط أفريقيا إلى جرمه ثم عبر المدن الجرامنتية الأخرى إلى مدن إقليم طرابلس ومن ثم تصديرها إلى روما . أما الإشارة إلى الجبل الذي كان مصدر للأحجار الكريمة التي تأتي من الجنوب الليبي فهذا دليل على أهمية تلك السلعة وما مدى رغبة الرومان في الحصول عليها ، وكل هذه الأشياء تدل على المكانة التجارية التي كان يمثلها الجرامنت إضافة إلى رغبة الرومان في السيطرة على تلك المنطقة والاستفادة من الموارد الموجودة في بلاد الجرمنت .

الجرامنت وعلاقاتهم التجارية

يعود ازدهار الحضارة الجرامنتية لعدة أسباب من أهمها سقوط الحضارة القرطاجية وانتقال جزء من أرثها الحضاري إلى المملكة النوميدية ومملكة الجرامنت ثم انتهاء الحضارة النوميدية التي زودت الجرامنت بخبرات فنية وبشرية نتيجة اضمحلال حضارتهم ومحاصرتهم من قِبل الرومان ، وقد يكون من أهم الأسباب التي أدت إلى ازدهار حضارة جرمه فيما بعد هو فترة الوفاق والسلام التي سادت العلاقات الجرامنتية الرومانية مع نهاية القرن الأول الميلادي والتي كانت الفترة اللاحقة لحملة فسباسيان على بلاد الجرامنت في العام **70** م .

وكان ازدهار الحضارة الجرامنتية خلال الفترة الممتدة من بداية القرن الثاني الميلادي وحتى منتصف القرن الخامس الميلادي حيث بقيت فيها جرمه المركز التجاري الأول في وسط الصحراء بين جنوب الصحراء وشمالها أو بالأحرى بين شمال أفريقيا ووسطها . وترتبط فترة الازدهار هذه بعاصمتهم جرمه التي بدأت تشتهر وتظهر للوجود بشكل واضح بعد انتقال منازلهم من على مدرجات أو منحدرات جبل زنككرا إلى مدينة جرمه القديمة [18] .

وابتداءً من عهد الإمبراطور الروماني دومتيان **81–96** م الذي حدث في عهده تقارب في العلاقــات بــين الرومان والجرامنت حيث تم في عهده عقد معاهدة أو حلف لمساعدة الجرامنت على فتح طريق التجارة مع المناطق الواقعة جنوب الصحراء الكبرى ازدادت المبادلات التجارية بين منطقة البحر المتوسط وأواسط أفريقيا عبر مملكــة الجرامنت [19].

وترتب عن حالة الوفاق الرومانية الجرامنتية تعاون روماني جرامنتي على الاستطــــلاع في أفريقيــا جنــوب الصحراء حيث قادت روما حملتين إلى أفريقيا انطلاقاً من المملكة الجرامنتية ، الأولى كانت في عهــد الإمبراطــور دومتيان بقيادة سويليوس فلاكوس ***Suellius Flaccus*** وهو قائد الفرقة الأوغسطية الثالثة واستغرقت ثلاثة أشهر والحملة الثانية بقيادة يوليوس ماتيرنوس ***Julius Maternus*** وانطلقت من مدينة لبدة إلى جرمه وشارك فيما بعد ملك الجرامنت في تلك الحملة على أفريقيا واستمرت لمدة أربعة أشهر وكان لهاتين الرحلتين دور مهــم للرومان في التعرف الطرق إلى وسط القارة الأفريقية [20] . وتؤرخ الحملة الثانية بعهد الإمبراطور تراجــان "**98–117** م" وقد كان لتلك الحملة ومرحلة التقارب بين روما وجرمه مردوده الحسن على جرمه أولاً ومن ثم علــى مدن إقليم طرابلس حيث ازدهرت التجارة بين وسط أفريقيا وشمالها وخاصة بين جرمه والمدن الثلاث [21] .

استمرت حالة السلام والهدوء في الإمبراطورية الرومانية بصفة عامة وفي منطقة إقليم طرابلس ومملكة الجرامنت بصفة خاصة خلال النصف الأول من القرن الثاني ، ولكن مع نهايته وبداية القرن الثالث رجعت مرحلة الحــروب والصراع في الإمبراطورية وفي منطقة إقليم طرابلس عندما بدأ يتعرض لغارات القبائل الليبية من جديد وكان ذلك ابتداءً من فترة الإمبراطور سبتميوس سيفيريوس "**193–211** م" . وبناءً على ما تقدم فإن الظروف الاقتصــادية والسياسية في المملكة الجرامنتية قد تأثرت بتلك الأحداث وبدأت فترة الازدهار التي شهدتها تسير نحو الاضمحلال أضف إلى تلك الأحداث ظهور الديانة المسيحية ومذاهبها في منطقة مدن إقليم طرابلس ونوميديا الأمر الذي كان له عظيم الأثر على النواحي الاقتصادية التي تعتبر عصب الحياة في المملكة الجرامنتية وهو مـــا أدى إلى زوال مملكــة الجرامنت بعد فترة طويلة من الازدهار في الجنوب الليبي .

أوضاع الجرامنت السياسية والاجتماعية والاقتصادية والحضارية

الوضع السياسي :

كانت الدولة الجرامنتية تخضع لنظام سياسي يحكمها مثلها مثل أي دولة في العصر القـــديم ويبـــدوأن النظـــام السياسي الذي كان سائداً عند الجرامنت هو نظام ملكي محلي ليس مستورداً من أي نظام حكم خارجي ، فالمجتمع الجرامنتي يتكون من ، الملك وحاشيته والأمراء ثم الحكام ، وطبقة العمال [22] . ويمكن تصنيفه وفقاً بالمنظرو المعاصر على أنه نظام أرستقراطي يباشر فيه الملك قيادة الجيش ويقوم بدور الكاهن الأعظم إضافة إلى أعلى سلطة في الدولة ويخضع للملك الأمراء والحكام الذين يسيطرون على الأقاليم ويقدمون للملك الضرائب العينية والبشرية في حالات الحرب ومركز الملك وحكمه كان في عاصمة الدولة التي كانت جرمة .

ويساعد الملك في السيطرة على الدولة وتنفيذ أوامره الجيش ، الذي يتكون من المشاة وقوة الفرسان وتتمثل قوة الفرسان في جانبين الأول هم الفرسان الذين يمتطون الجياد والآخر هم الذين يستعملون العربات العســكرية [23] . وكانت حركتهم العسكرية تتم على شكل حرب عصابات وليس جيش منظم يواجه في ميادين القتال وقد شهدت الأحداث على قوة المرتزقة الجرامنتيين في الحروب البونية أو في الغارات التي كان الجرامنتيون يشنونها على مــنطقتي إقليم المدن الخمس وإقليم المدن الثلاث [24] .

الوضع الاجتماعي :

يتكون المجتمع الجرامنتي من الأب ومجموعة من الزوجات كما أشار إلى ذلك الكتاب القدماء وعلى رأســهم سترابون وبما ان هناك تعدد في الزوجات فمعنى ذلك أنه كان للأسرة مجموعة كبيرة من الأطفال إضافة إلى العبيد ، وقد دلت الدراسات الأثرية على كثرة القبور النسائية بالجبانة الملكية [25] .

وقد تم الكشف على مقابر ضخمة للنساء في الجبانة الملكية ومن ضمن اللقى الأثرية التي تم العثور عليها في تلك المقابر الحلي والأدوات التي تخص المرأة وهذا دليل على ان المرأة عندما يكون وضعها الاجتماعي راقي أي من الطبقة الأرستقراطية فهي مساوية للرجل في القيمة والاهتمام [26]. وهذا يؤيد ما ذكرته المصادر الأدبية التي تحدثنا عنها [27].

أما العبيد أو الأرقاء فهم من أسرى الحرب الذين تم أسرهم من قِبل الجرامنت أو من بقايا السكان الأصـــليين الذين سيطر عليهم الجرامنت في خلال توسعاتهم واحتلالهم لبعض المناطق في الجنوب الليبي ، أو من سكان الكهوف الذين كان الجرامنت يهاجمونهم من حين لآخر .

الأوضاع الاقتصادية :

اعتمدت الأوضاع الاقتصادية في المملكة الجرامنتية على موردين رئيسيين وهمـــا **الزراعة والتجارة** إضافة إلى مجالات أخرى ومنها الرعي والصناعة .

أما فيما يخص الزراعة فقد تمتعت الأراضي الجرامنتية بتوفر المياه الجوفية فيها إضافة إلى مياه العيون والأنهار كما أشار إلى ذلك المؤرخين القدماء ، وكان من أهم المنتجات الزراعية التمور التي تتوفر بكثرة في مناطق الجرمنت ثم ما يقوم السكان بزراعته من محاصيل أخرى وكان للمرأة الجرامنتية دور في زراعة الأرض نتيجة لانشـــغال الرجـــل الجرمنتي بأمور أخرى مثل الحروب والصيد والرعي ، الذي يمثل أحد الموارد التي اعتمد عليها الجرامنـــت حيـــث يقومون بتربية حيوانات كثيرة منها الخيول والثيران والخراف ومن خلال وصف المؤرخين يلاحـــظ أن الظـــروف الطبيعية كانت مناسبة وملائمة وربما كانت أفضل مما عليه الوضع اليوم ويمكن ملاحظة ذلك مـــن خـــلال آلاف الحيوانات التي أشار لها سترابون والتي كانت تربى من قِبل الملوك الجرامنت .

أما المـــورد الرئيسي الثاني في الاقتصاد الجرامنتي فقد تمثل في التجـــارة وكانت تقوم على مورديـــــن ، الأول يعتمد على المواد الخـــام التي كانت موجودة في الأراضي الجرامنتية وأهمها الملح والأحجار الكريمة مثـــل الفـــيروز الأخضر والذي يُعرف "بالكاربونكل" ***Carboncle*** وعُرف كذلك بالحجـــر القرطاجي ***Carthagiuian Stones***[28] . وعُرف كذلك بالعقيق .

أما المورد الثاني فهو نقل البضائع من وسط أفريقيا إلى شمالها وبالعكس ، وكان من أهم الواردات الجرمنتية من وسط أفريقيا العاج ، ريش النعام ، الحيوانات المفترسة ، والذهب وكان الجرامنت يقومون بجلب الزيت والأواني الفخارية والخمور والمنسوجات من الشمال الأفريقي ، وكانت طريقة الجرامنت في تجارتهم المقايضـــة أو المبادلـــة وكانوا يستعملون الفضة والذهب والمعادن الثمينة بدلاً من العملة [29] .

أما الصناعة فقد كانت على مستوى محلي وتمثلت في صناعة الحلي بمختلف أنواعها من أساور وأقراط وكانت تصنع من الذهب والفضة أو الأحجار الكريمة واقتصرت الصناعات الجرمنتية الأخرى على الحاجات الأولية الـــتي يستعملها الإنسان الجرامنتي من ملابس ومتطلبات البناء أو السكن وبعض متطلبات المأكل من أواني محلية [30] .

الجوانب الحضارية عند الجرامنت

تميزت الحضارة الجرامنتية بمظاهر حضارية واضحة ومكتشفات أثرية لم تتوفر في أماكن إقامة القبائـــل الليبيـــة الأخرى ، كما يلاحظ عليها قلة التأثيرات الأجنبية لاسيما في الفترة المبكرة من عمر تلك الحضارة .

1- الديانة :

عبد الجرامنت مجموعة من الآلهة بعضها محلي والبعض الآخر أجنبي نتيجة لاختلاط الجرامنت ببعض الشعوب المحيطة وكان من أهم الآلهة الليبية التي عبدها الجرامنت الإلهة تانيت ***Tanit*** سيدة الصحراء وحبيبة للقمر ، وسر الينابيع المتدفقة [31]. وقد عبدها كذلك الفينيقيون ورأوا فيها صورة لإلهة الفينيقيين عشتار ***Ashetar*** زوجة بعل حامون ، وتمثل على شكل مثلث متساوي الساقين وعلى رأس المثلث قاعدة تساوي قاعدة المثلث وفـــوق تلـــك القاعدة قرص يمثل الشمس وقد كان شعار الآلهة تانيت رمحين متقاطعين [32] .

كما عبد الجرامنت الإله جارما ***Garama*** وهو جدهم الأول وهو ابن الإله أبوللو 33 كما عبد الجرامنتيون الإله الليبي زيوس آمون الذي يقع مقره في واحة سيوه وقد تكون عبادة هذا الإله قد انتقلت إلى الجرامنت عن طريق قبائل النسامونيس [34]. كما أخذ الجرامنتيون عن النسامونيس مزاولة الكهانة (التنبؤ بالغيب) عن طريق النوم علـــى قبور أسلافهم وأجدادهم ويعتقدون ان الأحلام التي يرونها في منامهم هي من استطلاعات الغيب [35].

اذن كانت ديانة الجرامنت تعتمد على بعض الآلهة المحلية والأخرى المشتركة مع الحضارات القديمـــة وخاصـــة الشرقية منها . أما فيما يخص الديانة اليهودية أو المسيحية فلم يكن هناك شواهد على انتشارهما بين قبائل الجرامنت بالرغم من التعاطف وحتى الانتماء الذي وجدته الدوناتية في منطقة إقليم طرابلس بسبب الاســـتيطان الأجـــنبي في الإقليم وحالة القهر التي كان يعاني منها الليبيون .

2- البنا والفنون عند الجرامنت :

يمكننا الاطلاع على فن البناء أو العمارة الجرامنتية في جانبين أساسيين عند الجرامنت وهما الأماكن التي كـــان يعيش بها الإنسان الجرامنتي وما يتبعها من مرافق للاستعمال اليومي ، ثم القبور التي يدفن بها موتاه .

ففي الجانب الأول وهي المساكن يمكننا تتبع تطور البناء عند الجرامنت منذ الفترة الأولى الـــتي اســـتقر فيهـــا الجرامنت فوق جبل زنككرا وقد تم التعرف على تلك المخلفات عن طريق الحفريات التي قامت بها البعثات المحلية والأجنبية في منطقة جرمه وما حولها . وتشير الدراسات إلى وجود عدد كبير من المساكن البدائية على قمة جبـــل زنككرا [36] .

وخلال المرحلة الثانية التي استقر بها الجرامنتيون على منحدرات جبل زنككرا وهي الفترة التي سبقت العصـــر الميلادي وقبل بناء مدينة جرمه فإن المباني كانت طينية من الأحجار المشدبة وتم استعمال الملاط والطلاء بها وذات أرضية جيدة مع وجود أعمدة لتلك المساكن [37].

أما مرحلة النهضة المعمارية الجرامنتية فيمكن ملاحظتها بعد قيام مدينة جرمة ، حيث تم إحاطة المدينة بســـور إضافة إلى خندق لغرض الدفاع عنها من الغارات الخارجية وقد توفرت كل سبل الحياة الراقية في المدينة من حمامات ومعابد وبيوت ذات اتساع كبير وأسواق [38] . وتعود هذه الفترة إلى القرن الأول الميلادي ويلاحظ على مدينـــة جرمة التأثيرات الإغريقية والجرامنتية المتمثلة في وجود التيجان الدورية والأيونية والكورنثية والأفاريز إضـــافة إلى التأثيرات الرومانية [39] .

وتعتبر القرون الميلادية الأولى فترة ازدهار في مدينة جرمة ويلاحظ ذلك من خلال مساكنها وطلائها وزخرفتها في بعض الأحيان إضافة إلى شبكات تصريف المياه ، وموقعها وتحصينها عن طريق السور أو الخندق الذي كان يحيط بها [40] .

أما الجانب الثاني في البناء عند الجرامنت فهو المقابر والتي لم تلقِ اهتمامـــاً كبـــيراً مثل اهتمامهم بالمســـاكن واقتصرت العناية بالمقابر على الطبقة الحاكمة أو الغنيـــة التي تملك المال .

وأقدم المقابر التي تم الكشف عليها كانت بالجبانة الملكية بمدينة جرمة وكانت القبور قد بنيت على شكل مربع بدرجتين إضافة إلى الأشكال الهرمية ويتراوح ارتفاعها بين المترين وخمسة أمتار [41] . كما تم الكشف على المقابر المستديرة ذات اللحود الصغيرة وغير العميقة وكانوا يدفنون الميت فيها في وضع يشبه الجنين في الـــرحم [42] ، وتم الكشف في تلك المقابر على أدوات الزينة المصنوعة من العظام والحجارة ، ومن الأنواع المهمـــة الـــتي اســـتعملها الجرامنت المقابر التي تعرف [بالموزاليوم] وهي الاضرحة الكبيرة والتي تعرف في الأساطير القديمة على أنها مســـاكن الموتى [43] . ومن المحتمل ان هذا النوع من المدافن قد انتقل من قرطاجة إلى نوميديا ومنها إلى الجرامنت وانتشر هذا النوع من المدافن في إقليم المدن الثلاث وهناك نماذج موجودة في مدينة [جرزة] وهذا يدل على ليبيته وأنـــه لـــيس طرازاً رومانياً [44] .

وتميزت القبور الجرامنتية بأشكال مختلفة من "شواهد القبور" فالبعض على شكل مسلة من الحجـــر الرملـــي وبارتفاع لا يزيد عن مترين والآخر على شكل معين وبعضها على شكل قرنين أو هلال وهو رمز الإلهة "تانيت" أو على شكل كف اليد ، وكل هذه الرموز التي كانت على شواهد القبور ذات تأثيرات بعضها أتى مـــن الشـــرق والبعض الآخر من الغرب [45] .

أما فيما يخص الفنون فقد كان الجرامنت بدائيين في رسومهم ونقوشهم ، إذا ما تمت مقارنتهم بغيرهـــم مـــن الحضارات الأخرى ، فقد كانت الرسوم والنقوش الجرامنتية في بدايتها تمثل خطوط هندسية تعبيرية غير واقعية ولا توجد بها حركة ، وأهم الأمثلة على تلك الرسوم أو النقوش ما تم العثور عليه في زيجزا ***Zigza*** في شمال فـــزان وبجبل غنيمة في الجنوب وفي جبل زنككرا قرب مدينة جرمة [46] .

وقد تطورت الفنون في الفترات اللاحقة وأصبحت أكثر واقعية وأكثر حيوية ويلاحظ عليها الحركة وبملامـــح بشرية واضحة ونلاحظ كل تلك الأشياء بوضوح في الرسومات الجرمانتية المتأخرة وخاصـــة في حركـــة رســـوم الحيوانات التي تم رسمها [47].

المصادر والمراجع والهوامش :

1. هيرودوت / الكتاب الرابع / ترجمة : محمد المبروك الذويب / الطبعة الأولى / منشورات جامعة قاريونس / بنغازي / 2003 ف / الفقرة 181 .
2. علي فهمي خشيم / نصوص ليبية / الطبعة الثانية / دار الفكر / 1975 / ص 109 . Plinivs . Secundus . V - 5

* " لقد تحدث بطليموس الجغرافي Ptolemy عن مجموعة من الواحات في الجنوب الليبي وذكر ان بفزان مجموعة من المدن والواحات من أهمها جيلانوس Gelanus وهي واحة الجفرة وسبها Sabae والبدير Bedirum ومدينة جرمه الكبرى Garama Metropoils " .. لمزيد من المعلومات أنظر / محمد سليمان أيوب / حملة كورنيليوس باليوس / ليبيا في التاريخ القديم / منشورات الجامعة الليبية / 1968 / ص 159 .. وكذلك Ptolemy , IV - 7 .

3. علي فهمي خشيم / المرجع السابق / ص ص 110 – 111 .

" هناك مجموعة كبيرة من الأسماء التي لم يتعرف عليها حتى وقتنا الحاضر بعضها لاسماء مناطق والأخرى لاسماء أنهار وقد كانت فترة الحملة التي قام بها الرومان بقيادة بالبوس في العام 19 ق.م أكبر فترة توثيق للمناطق الجنوبية من ليبيا وقد نقل لنا بليني بعض المعلومات التي تخص تلك المنطقة في فترة حياته "23-79م" .

4. هيرودوت / الكتاب الرابع / الفقرة 183 .
5. علي فهمي خشيم / المرجع السابق / ص 109 .
6. Plinius : S / N.H / Loeb /. V - 5
7. أحمد فخري / مصر الفرعونية / الطبعة الرابعة / مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة / 1978 م / ص ص 358 – 359 .
8. محمد سليمان أيوب / جرمه في عصر ازدهارها / ليبيا في التاريخ / المؤتمر التاريخي / الجامعة الليبية / كلية الآداب / بنغازي / 1968 / ص 156 .
9. Romanelli . P / Storia delle Province Romane dell Africa / 1959 .
10. هيرودوت / الكتاب الرابع / الفقرة 183 .
11. سترابون / الكتاب السابع عشر / ترجمة محمد المبروك الدويب / منشورات جامعة قاريونس/بنغازي/2003 ف / الفصل الثالث / الفقرة 19 .

12. نفس الفقرة السابقة .

13. بليني الأكبر / الكتاب الخامس / الفقرة الخامسة / " 35 – 36 " .

14. علي فهمي خشيم / المرجع السابق / ص 111 .. وأنظر كذلك / Pliny . V-V ((37 - 38))

15. محمد سليمان أيوب / حملة كورنيليوس باليوس / المرجع السابق / ص 217 . والمعلومات نقلاً عن خريطة :

The Roman Expeditions of Cornilus Balbus and Vaspasian

16. محمد سليمان أيوب / المرجع السابق / ص 208 .

17. أحمد انديشه / التاريخ السياسي والاقتصادي للمدن الثلاث / الطبعة الأولى / الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع / 1993 / ص 82 .

18. محمد سليمان أيوب / جرمه في عصر ازدهارها / ليبيا في التاريخ / المؤتمر التاريخي / الجامعة الليبية / كلية الآداب / بنغازي / 1968 / ص 167 .. لمزيد من المعلومات انظر :

Miller . I . J / The Spicetrade of Roman Empire / 1969 .

19. محمد سليمان أيوب / جرمة في عهد ازدهارها / المرجع السابق / ص 159 .

20. عبد اللطيف محمود البرغوتي / التاريخ الليبي القديم / الطبعة الأولى / منشورات الجامعة الليبية / دار صادر / 1971 / ص 356 .

21. أحمد انديشه / المرجع السابق / ص 88 .

22. عبد اللطيف البرغوتي / المرجع السابق / ص 317 .

23. نفس المرجع السابق / ص 318 .

24. محمد سليمان أيوب / المرجع السابق / ص 176 .

25. محمد سليمان أيوب / المرجع السابق / ص ص 174 - 175 .

26. محمد سليمان أيوب / المرجع السابق / ص 175 .

27. سترابون / الكتاب السابع عشر / الفصل الثالث / الفقرة / 19 .

28. محمد سليمان أيوب / حملة كلورنيليوس بالبوس / المرجع السابق / ص 216

29. محمد سليمان أيوب / جرمه في عصر ازدهارها / المرجع السابق / ص ص 187 – 188 .

30. عبد اللطيف البرغوتي / المرجع السابق / ص 322 .

31. عبد اللطيف البرغوتي / المرجع السابق / ص 322 .
32. محمد سليمان أيوب / جرمه في عصر ازدهارها / المرجع السابق / ص 172 .
33. عبد اللطيف البرغوتي / المرجع السابق / ص 171 .
34. محمد سليمان أيوب / المرجع السابق / ص 170 .
35. رجب عبد الحميد الأثرم / محاضرات في تاريخ ليبيا القديم / الطبعة الثالثة / منشورات جامعة قاريونس / بنغازي / 1998/ 216 .
36. رجب عبد الحميد الأثرم / المرجع السابق / 214 .
37. محمد سليمان أيوب / جرمه في عصر ازدهارها / المرجع السابق / ص 167 .
38. عبد اللطيف البرغوتي / المرجع السابق / ص 316 .
39. محمد سليمان أيوب / المرجع السابق / ص 168 .
40. رجب عبد الحميد الأثرم / المرجع السابق / 215 .
41. محمد سليمان أيوب / المرجع السابق / ص 168 .
42. عبد اللطيف البرغوتي / المرجع السابق / ص 323 .
43. رجب عبد الحميد الأثرم / المرجع السابق / 218 .
44. محمد سليمان أيوب / المرجع السابق / ص 161 .
45. محمد سليمان أيوب / المرجع السابق / ص 169 .
46. عبد اللطيف البرغوتي / المرجع السابق / ص 322 .
47. محمد سليمان أيوب / المرجع السابق / ص 166 .